إشكالية مفهوم التناص في النقد الأدبي المعاصر

د.مولاي حورية
جامعة سيدي بلعباس

ملخص:

يطرح التناص مسألة استقلالية النص أو تبعيته ، وقد ركز النقد الغربي على تبعية النص لسياقه النفسي والتاريخي والاجتماعي، فجاء النقد المعاصر ليؤكد عدم استقلال النص الأدبي، لكنه يمارس التبعية بالمعنى التقليدي، فالنص له صلة بنصوص سابقة، لكنه لا يسعى إلى كشفها.

والتناص مصطلح يرادفه التفاعل النصي أو المتعاليات النصية، وغيرها من مصطلحات الأخرى، قدمت لها المدارس النقدية المعاصرة في نشاطها الفكري نظريا وتطبيقيا. إذن ما حقيقة التناص، وماهي بداياته وكيف تطور عند العرب اصطلاحيا؟

Résumé :

La critique occidentale a mis l'accent sur la dépendance du texte à son contexte psychologique, historique et social: la critique contemporaine a confirmé que le texte littéraire n'est pas indépendant, mais qu'il est subordonné au sens traditionnel du texte, mais ne cherche pas à le révéler.

Le terme est synonyme d'interaction textuelle, de parallèles textuels et d'autres termes: les écoles monétaires contemporaines leur ont fourni une activité intellectuelle théorique et appliquée. Alors, quelle est la vérité de la convergence et quels sont ses débuts et comment s'est-elle développée chez les Arabes?

❖ التناص :إشكالية المفهوم والظهور:

يرجع السبق والأولوية في ولادة مصطلح التناص إلى جوليا كريستيفا 1969 م .وقد استنبطته من باختين في دراسته لدو ستيوفسكي 1963 م ورابليه 1965 م ولقد أدخلته" إلى حقل الدراسات الأدبية في أواسط الستينيات من القرن العشرين، أخذته عن (باختين) الذي اكتشف مفهوم الحوارية (البوليفونية، أو تعدد الأصوات)عام1929 وعدّته وظيفة تناصية تتقاطع فيها نصوص عديدة في المجتمع والتاريخ، وسمته (إيديولوجيما)، ولكن تسمية التناص هي التي شاعت وانتشرت بشكل سريع ومثير، وأصبح (التناص) مفهوما مركزيا ينتقل من مجال دراسي إلى آخر، حتى لقد صار (بؤرة) تتولد عنها المصطلحات المتعددة: التناصية، المناص، التفاعل النصي، المتعاليات النصية، المتناص، الميتانص...ومارسته جماعة (تل كل) الفرنسية التي كانت كريستيفا واحدا من أعضائها."[1]

ومن ثم احتضنت هذا المصطلح البنيوية الفرنسية وما بعدها من اتجاهات سيميائية وتفكيكية في كتابات كريستيفا ورولان بارت وتودوروف ... الخ.

❖ مصطلحات التناص:

جاء القول بالتناصية بعد تراكمات نقدية أثارها نقاد أفادوا أن دراسة الأدباء لا يمكنها أن تفي بالغرض في إطارهم وحدهم ، فمعرفة الجديد مرتبطة بمعرفة القديم، وأكثر المبدعين أصالة من كان في تكوينه رواسب من الأجيال السابقة. فأتت الدراسة التناصية لمعرفة الماضي الممتد في النص والحاضر المتسرّب إليه .

ففي الحدث الأدبي ثلاثة عناصر: (الفاعل – الكاتب والفاعل – المتلقي والنصوص السابقة التي تحدد الفضاء المنتمي إلى نص ما)، فكل خطاب يكرر آخر.

ويشار أن الفضل في بزوغ هذه الظاهرة يعود إلى "الشكلانيين الروس وبالضبط مع شلوفسكي الذي فتق الفكرة ثم أخذها عنه باختين الذي حولها إلى نظرية حقيقية تعتمد على التداخل القائم بين النصوص، ثم أخذته جوليا كريستيفا لتمضي به أشواطا واسعة في دراستها النقدية وخاصة الروائية منها."[2] يأتي التناص صوتا لنصوص سابقة، بحيث يكون النص المتناص خلاصته

نصوص تنمي الحدود بينها، ويتم صياغتها بشكل جديد. فهو علاقة تفاعل بين نصوص سالفة أو معاصرة ونص ماثل. أو هو تعالق نصوص مع نص، فـ "النصوص تمثل في علاقتها مع بعضها نظاما هيرمنيوطيقيا يتولد من عدّة نصوص سابقة"[3]

ويطرح التناص مسألة استقلالية النص أو تبعيته، وقد ركز النقد الغربي على تبعية النص لسياقة النفسي والتاريخي والاجتماعي، فجاء النقد المعاصر ليؤكد عدم استقلال النص الأدبي، ولكنه يمارس التبعية بالمعنى التقليدي، فالنص له صلة بنصوص سابقة، لكنه لا يسعى إلى كشفها.

❖ أنواع التناص

يتحدد التناص في الشكل والمضمون معا. وهو نوعان:داخلي وخارجي، فالداخلي هو حوار النص في تناسله، ففيه المنطلقات والأهداف والحوار المباشر وغير المباشر. أما التناص الخارجي فهو حوار بين نص ونصوص أخرى متعدد المصادر والوظائف. و"منها مقالة لوسيان ديلنباخ التي ميز فيها بين التناص الداخلي والتناص الخارجي والتناص العام الذي هو علاقة نص الكاتب بنصوص غيره والتناص المقيد الذي هو علاقة نصوص الكاتب بعضها ببعض"[4]

لقد اعتبرت البنيوية النص البنية مغلقة، وجاء التناص ليقر بالبنية المفتوحة والمتحركة والمتجددة، وتحطيم بنية النص ونظمه اللذين قالت بهما البنيوية، فقد ركزت البنيوية على ثنائية (القارئ / الكاتب) والكاتب الفعلي للنص هو القارئ .لكن التناص فك هذه الاشتباكات وحدد الأصوات المترددة في جنبات النص وتراكيبه، وأعادها لأصحابها السابقين أو المعاصرين . لكن هذا لايعني أن البنيويين تمسكوا بالمغلق تماما .

فمنهم تخطى هذه الممارسة النقدية إلى مجال أرحب مثل تودروف، رولان بارت، ريفاتير ... وغيرهم مثل آريفي الذي تبنى مقولات الشكلانيين الروس والبنيويين بعدم مرجعية النص، وقال بتعديل هذه الحقيقة، لأن النص يملك دليلا مرجعيا وهناك علاقات مع الواقع الخارجي ، فالنص يحمل في طياته نصا آخر .وتبنى تودوروف التناص كمرتبة من مراتب التأويل .أما ريفاتير فيجد أن مصطلح التناص يلعب دورا مهما في "تمويه المعنى وتحويله نحو قابلية النص للتدليل، تبعا لنوعية القراءة واختلاف القراء."[5]

ويرى رولان بارت أن كل نص هو التناص، فكل نص نسيج من استشهادات سابقة والتناصية هي قَدَرُ كل نص مهما كان جنسه. أشرنا أن كريستيفا كان لها السبق في ولادة مصطلح التناص على الرغم من أنه ورد لدى باختين الذي يسميه "التفاعل السوسيولفظي " لكنها (كريستيفا) أعطت لهذا المصطلح بعده النقدي والأدبي في كتاباتها التي نشرتها مجلة (تيل –كل) وأعيدت في كتابيها : السيمياء – نص الرواية –معتمدة على دراسة باختين. لدوستيوفسكي ورابليه. كما أفادت كريستيفا من دي سوسير في البحث عن النص الغائب في فضاء اللغة الشعرية تحت مصطلح التصحيفية الذي "عده من الخصائص الجوهرية لبناء اللغة الشعرية."[6]

❖ أنماطه:

اعتنى (جيرار جينيت) بالتعالي النصي كنوع من المعرفة الذي يرصد العلاقات الخفية والواضحة لنص مع نصوص أخرى .وهذا التعالي النصي يعني عنده الوجود اللغوي ويضمن المحاكاة وعلاقة التغيير والمعارضة والمحاكاة الساخرة.أي "يعني عنده كل ما يجعل نصا يتعلق مع نصوص أخرى، بشكل مباشر أوضمني."[7]

وينحصر التناص عنده في نمطين : الأول عفوي ، والثاني يعتمد على الوعي والقصد، فتأتي الإشارة إلى النص الآخر إشارة واضحة تصل إلى درجة التنصيص .وقد حدد جيرار جينيت التعالي النصي في خمسة أنماط نقلا عن جمال مباركي [8]:

1-التناص: وهو حضور نصي في نص آخر، كالاستشهاد والسرقة وغيرهما (العلاقة بين نصين أو أكثر).

2- الميتانص: ما وراء النص وفيه يتم الحديث عن نص آخر دون ذكره .

3-النص الأعلى أو اللاحق: يكمن في علاقة تحويل ومحاكاة بين النص أعلى ونص أسفل أو النص اللاحق بالنص السابق.

4-المناص : يوجد في العناوين والمقدمات ، وكلمات الناشر والصور والخواتيم....

5-جامع النص أو معمارية النص:وهي علاقة صماء أكثر تجريدا أو تضمنا وتأخذ بعدا مناصيا. يتضمن مجموعة الخصائص التي ينتمي إليها كل نص(رواية –قصة –شعر...

لقد عنيت الدراسة الأدبية والنقدية بمصطلح التناص، وهاجر في بداية السبعينات إلى أمريكا، وتبنى المنتدى الدولي للبويطيقيا باسهام (ريفاتير) 1979 مصطلح التناص إلا أن كريستيفا قد انصرفت عن الاهتمام بالواقع التاريخي للخطاب، وتخلت عن مصطلح التناص 1985 م واستخدمت مصطلحا بديلا أسمته : (المناقلة والتنقلية) كون أن هذا المصطلح (التناص) قد أضحى يستخدم في المعنى المبتذل فلذا يفضل عليه مصطلح المناقلة.

وخلاصة هذا وردت عدة مفاهيم لمصطلح التناص هي كمايلي :

1-التناص : ولد على يد كريستيفا في مجلة (تيل-كل).

2-التفاعل النصي: يتم بين بنية النص والبيانات النصية، وقد تكون ضمنيا.

3-المناص :يوجد في العنوانين ، وكلمات الناشر ، والصور ، والمقدمات.

4-التناصية : تبني العلاقات على أمور تتعلق بالبنية والفضاء الإبداعي.

5-البنيات النصية : يأتي النص ضمن بنية نصية سابقة أو معاصرة للكاتب.

6-التعالق النصي :النص اللاحق يكتب السابق بطريقة جديدة .

7-المتناص : يستوعب النص عددا من النصوص سواء كانت في ذاكرة الكاتب أم القارئ

8-المصاحبات الأدبية : استشهادات تدخل في بنية النص

9-المتعاليات النصية:ما يجعل نصا يتعالق مع نصوص أخرى بشكل مباشر أو ضمني.

❖ التناص في النقد العربي:

يرى محمد مفتاح أنّ التناص هو « فسيفساء من نصوص أخرى أدمجت بتقنيات مختلفة »[9] ، والأكثر من ذلك يعده « ظاهرة لغوية معقدة تستعصي على الضبط والتقنين، إذ يعتمد في تمييزها على ثقافة المتلقي وسعة معرفته وقدرته على الترجيح »[10]

هذه الصعوبة التي يراها محمد مفتاح في القبض على التّناص الموجود في النصوص الأدبية يتراءى له أن يحدده بمجموعة من الآليات يمكن تلخيصها على النحو الآتي :

أ- آلية التطابق : وهي أن يكون للكاتب دراية بالنصوص القديمة حتى يطابقها على النصوص الجديدة و« يتبنّى من الأفكار والمعاني ما يغني تجربته الشخصية ويجعله فاهما للعالم وللحياة وللواقع الذي يعيش فيه »[11].

ب- آلية التفاعل :أن تكون النصوص متفاعلة مع ما هو قديم وجديد .

ج- آلية التحرز : وهي أن يتناول الكاتب موضوعات لها سمة الوجود .

د- آلية القلب : وهي مثلا عندما يتناول الكاتب شخصية ما تثير إعجابه فيجعلها قناعا له، لكن يحدث فيها التغيير .

هذه الآليات يمكن أن يختلف وجودها في النص، باختلاف النصوص الأخرى، أي ما وجده محمد مفتاح في دراسته لأحد الشعراء، قد يوجد نص شعري آخر لا يحوي هذه التقنيات، فيزيد أو ينقص آليات أخرى.

أما محمد بنيس يطلق على مصطلح التناص، مصطلحات جديدة في كتابه " ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب "، حيث يطلق عليه مصطلح « التداخل النّصي، أما في كتابة حداثة السؤال استبدله بمصطلح هجرة النص الذي شطره إلى شطرين، فهناك نص مهاجر ونص مهاجر إليه »[12]، وعلى إثر إطلاقه لهذا المصطلح ينفي وجود نص من العدم ، وإنّما هناك مجموع من النصوص المتداخلة تنتج في الأخير نصا آخر لذلك يعده « دليلا لغويا معقدا لشبكة من النصوص اللانهائية »[13] .وبمفهومه هذا يلحظ أنّه على اتفاق مع محمد مفتاح، في أنّ التّناص ظاهرة لغوية معقدة .

تمكن محمد بنيس من « وضع ثلاثة معايير للعلاقة التي تحكم النص اللاحق بالنص السابق ، وهذه المعايير: الاجترار، الامتصاص، الحوار »[14].

وعلى غرار ذلك تناول سعيد يقطين مصطلح التناص من خلال تفريقه لمصطلحين : "التفاعل النصي الخاص" ، و"التفاعل النصي العام" متأثرا في ذلك بجيرار جينات .

ثم يرى سعيد يقطين أن « النص المقروء لا يمكن فهمه دون الرجوع إلى العديد من النصوص التي ساهمت في خلقه »[15].

ولقد جعل صبري حافظ للتناص مظاهر عديدة تجلّت في « النص الغائب، الإحلال والإزاحة، الترسيب، السياق، المتلقي »[16] وكل عنصر من هذه العناصر يكمل الآخر .

أما عبد الملك مرتاض فيقسم التناص إلى أنواع متعددة منها التناص المباشر والتناص الضمني ، فأمّا الأوّل « فهو الذي يتضح فيه المرجع، وهو ما كان يعرف عند البلاغيين بالاقتباس، أما التناص الضمني أو المذاب فهو الذي لا يمكن التفطن إليه بسهولة أو الكشف عنه حتّى الكاتب المعنيّ نفسه»[17] .

❖ موقع التناص:

كثيرا ما يطرح الإشكال حول موقع التّناص، أيقع في الشكل أم في المضمون ؟ أم في كليهما ؟.

محمد عزام ومحمد مفتاح طرحا هذه الإشكالية ، وتوصلا إلى أنّ التناص موجود في المضمون، كما هو موجود في الشكل بحجة أن « الشاعر يعيد إنتاج ما تقدمه وعاصره من نصوص مكتوبة وغير مكتوبة، أي ينتقي منها صورا أو مواقف أو تعابير. ولكن لا مضمون خارج الشكل أو الشكل هو المتحكم في المتناص[18] »

ويصنف محمد عزام التناص إلى نوعين : التناص الداخلي ويقصد به التناسل والتوالد الموجود في النص، والتناص الخارجي فيكون بين النص والنصوص الأخرى .

❖ خلاصة:

على هذا الأساس أثار مصطلح التناص اهتماما كبيرا في الأوساط الغربية والعربية بوصفه أداة إجرائية تسهم في تحقيق الجمال الفني للنص، وتعطي أبعادا فكرية يتشربها الكاتب والقارئ في الآن ذاته ، بحيث يتمكن الكاتب من خلال نصه إنتاج نصوص جديدة أخرى، وبالنسبة للقارئ يتعلق الأمر بالذوق والمتعة التي يحققها النص الأدبي أثناء قراءته .

الهوامش:

[1] محمد عزام، شعرية الخطاب السردي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص 113.[1]

[2] جمال مباركي، التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، د.ط،2003، ص38.

[3] المرجع نفسه ،ص 126.

[4] محمد عزام، شعرية الخطاب السردي، ص 114.

[5] حميد لحميداني، القراءة وتوليد الدلالة- تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2003، ص27.

[6] جمال مباركي،التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، ص42.

[7] محمد عزام، شعرية الخطاب السردي، ص 114

[8] ينظر، مرجع نفسه، ص 114.

[9]- محمد مفتاح : تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص) ، المركز الثقافي العربي ، دار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1985 ، ط2 ، 1986 ، ط3 ، 1992 ،.- ص 121 .

[10]- المرجع نفسه – ص 131.

[11]- محمد مفتاح : مشكاة المفاهيم ، النقد المعرفي والمثاقفة ، المركز الثقافي العربي ، المغرب /، ط1 ، 2000 ، ص 172 .

[12]- ينظر : جمال مباركي : التناص وجماليته في الشعر الجزائر المعاصر ، ص 43-44 .

[13]- المرجع نفسه ، ص 45 .

[14]- ينظر : رابح بوحوش : : الخطاب والخطاب الأدبي وثورته اللغوية على ضوء اللسانيات وعلم النص ، مجلة اللغة والأدب،معهد اللغة العربية وآدابها ، الجزائر ، ع 12 ، 1997، ، ص 133- 134 .

[15]- جمال مباركي : التناص وجماليته في الشعر الجزائر المعاصر ا : ص 46 .

[16].- ينظر : حسين قحام : التناص ، مجلة اللغة والأدب ، معهد اللغة العربية وآدابها الجزائر ، ع 12 ، 1997 . ، ص 133 .

[17]- عبد الملك مرتاض : تحليل الخطاب السردي ، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية " زقاق المدق " ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1995 ، ص 273 .

[18]- محمد عزام : النص الغائب : تجليات التناص في الشعر العربي – دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العربي ، مكتبة الأسد الوطنية دمشق ، 2001 ، ص 15 ، والنص موجود في كتاب تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) محمد مفتاح .